كثيرون هم الفرنسيون الذين تناولوا المجتمع الجزائري في جميع عصوره ومراحله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية، ويضيق المجال لذكر أسمائهم، والأنسب في التعرف على هذه الكتابات العودة إلى الدراسات البيبليوغرافية التي وضعها بعض الفرنسيين مثل: دراسة كريستيان كورتوا (من روما إلى سلام) وويليام مارسي (مائة سنة في البحث في ماضي افريقيا الإسلامية) وجورج ايفير (غزو واحتلال الجزائر) وجوزفي ياكونو (الجزائر منذ 1830) وشارل (تيار الجزائر في الأدب الفرنسي).

لقد حاول هؤلاء الكتاب والباحثين تسليط الضوء على المجتمع الجزائري من خلال: تركيبته الاجتماعية، ووضعيته قبل الاستعمار الفرنسي وعلاقته المستمر بالسكان الأصليين، والواقع إلا فيما يبدو من خواطر.

وسنحاول التطرق إلى أسماء ثلاثة من أبرز الباحثين والمفكرين الفرنسيين الذين تناولوا ودرسوا المجتمع الجزائري من منظور سوسيولوجي، ومساهمتهم في فهم وتحليل الواقع الاجتماعي الجزائري وهؤلاء هم: شارل روبير آجيرون، جون كلود فاتان، وأليركامي.

1- شارل روبير آجيرون: شارل روبير آجيرون من مواليد 1923 بمدينة ليون الفرنسية، مؤرخ متخصص في تاريخ الجزائر والحقب الاستعمارية.

نار آجيرون الجزائر أول مرة عام 1942 لأداء الخدمة العسكرية وشاهد أحداث 8 ماي 1945 وما وقع خلالها من مجازر في حق الشعب الجزائري وهو ما دفعه لتقديم أطروحة دكتوراه بعنوان: "الجزائريون المسلمون وفرنسا". (1871 - 1919).

وكان آجيرون مهتما بتاريخ الجزائر المعاصر والذي كرس له أربعين سنة من حياته قد تدريسه بالعديد من الجامعات الفرنسية، ولعل للموقف الذي تبناه اتجاه الاستعمار الفرنسي خير معبر على احترامه لكتوتة واستقلالية الشعب الجزائري

إن أعمال المؤرخ شارل روبير الراف حول السياسة الاستعمارية إنما هي ذكرى في هذا المقام، فالإضافات! هو ثمة ضرورة وضع هذه الإضافات التي تعرض لها الجزائريون، والتراجيديا إرفاقا لما أراضيهم وكل التجاوزات التي مارستها قادة تحت غطاء الشريعة. فقد ملول تقديم وصف عام للأوضاع التي يعيشها الجزائريون خاصة التعليم والشعائر الدينية والقضاء والحالة المدنية والاقتصاد، وذكر بالتحيف الذي مست جراء السياسة الاستعمارية التي فوضت أركان المؤسسات التقليدية الجزائرية وعطلت الحج وهدمت المساجد تلت الزوايا الفرنسية واستبدلت القضاء الفرنسي بالقضاء الفرنسي.

كما يؤكد آجيرون على تقديم صورة شاملة للمجتمع الجزائري قبل الاستعمار الفرنسي من حيث تركيبة السكان الاجتماعية والعلاقات بين الفئات، والأوضاع الاقتصادية التي للخصوص أشكال النشاط الرعوي الشكل الأكثر تنظيما الذي تخصص فيه جماعة معينة داخل المدن الجزائرية، الشكل البايلي أو البايلكي أي التابع لسلطة الباي أو الشكل المخزني.

أما بعد الاستقلال فقد حاول آجيرون إعطاء وصف أكثر دقة للمجتمع الجزائري الذي عرف تحولات كبرى في مختلف المجالات، وما جعل لزاما على الدولة الجزائرية مواجهة تحديات اقتصادية واجتماعية وضرورة تبني سياسة تنموية قادرة على إعادة بناء وتهيئة الدولة الجزائرية.

وأخيرا وليس آخرا فقد حاول آجيرون أن يتطرق من خلال كتاباته جوانب معينة من السياسة الاستعمارية في الجزائر، تناولها بشكل من الموضوعية وبروح علمية متجردة وهو ما جعل محل سخط لدى المعمرين والذين قام السوداء بالجزائر لدرجة تضيق عليه وعزله من النشاطات العلمية في الجامعات الفرنسية!) غادره وفاته في بيتر كلود فاتان: من الكتاب الفرنسيين المختصين في علم السلالات (الأنثروبولوجيا) ودراسات المجتمعات، والمهتمين خاصة ببلدان المغرب العربي، الوجه الحديث والمعاصر لفتان العديد من الدراسات والكتب التي تناول فيها المجتمع الجزائري بصورة دقيقة من خلال:

- التأثير على العادات والتقاليد، وتعاليم الفرق الصوفية، وسيرة الحكام وأصول السكان (عربا وبربر) والقانون العرفي السائد بينهم.

- اعتبر الدراسات للصحة بالفقر والفكر الإسلامي خيالية قريبة من الفلسفة وتاريخ الديانات وبعيدة عن الشرائح الاجتماعية التي كانت تعيش ديانتها منذ قرن تحت السيطرة الفرنسية.

- وقدم تقسيمات وإحصاءات شاملة عن واقع الجزائر والجزائريين.

- ولعل ما خلص إليه فانون أن المجتمع الجزائري يتشكل من قبائل متناحرة تتعايش مع دين مشترك، ولا تنصهر إلا بالثورة.

3- ألبير كامي: يعتبر كامو (Albert camus) فيلسوف فرنسي معروف بأفكاره الإنسانية والتزامه السياسي، فأعماله تعتبر من المساهمات الأدبية في مجالي الفقر والنظام الاجتماعي ومعاناة الفقراء من خلال أعمال مثل: "الرجل الثائر" "الغريب" يتناول كامو موضوعات مثل: الاغتراب، والوحدة، وعدم المبالاة، معاينا في نظرته لمريسو الواقع المعيش للفقراء، وقد تأثرت وجهة نظره في العدالة والكرامة الإنسانية بتجاربه التي عاشها في فقر وبؤس في الجزائر.

- في كتابه "الرجل الثائر" يحلل كامو مفهوم الثورة وعلاقتها بالنظام الاجتماعي، ويؤكد أن الثورة وسيلة ضرورية للنضال ضد الظلم وحماية حقوق الإنسان، لكنه يحذر من مخاطر العنف، إذا لم يتم توجيهه بشكل صحيح، وفي روايته "الغريب" يتناول كامو قصة مورسو لت التي تحكم إعدامه بعد قتل غير مقصود، وتسلط هذه الرواية الضوء على الطبيعة التي تجعل النظام الاجتماعي يدفع الأفراد إلى ارتكاب أعمال عنيفة.

- انطلاقا من رواياته يحاول كامو الوقوف في رحلة لتجسيد الواقع وفق رؤيته لضرورة حتى لا تنحصر نظرته في الواقع الجغرافي بل تمتد لتلامس تجليات الواقع كما تخلق الصعوبات والعوائق التي تبني سياسات لمحاربة الفقر وتحسين ظروف المجتمع، يظهر كامي أهمية التعاون والتضامن في تجاوز هذه التحديات فالفقر ليس مجرد نقص مادي، بل هو تلاعبات اجتماعية تحتاج إلى معالجة شاملة، ويرى كامي إمكانية التأثير السلبي للفقر في إمكانية التقدم والتطور الشخصي، حيث يحرم الأفراد من الفرص الأساسية مثل: التعليم والصحة والمشاركة المدنية.